

الصحة الإيمانية و الوقاية من السلوك الإنحرافي (التربية الصوفية نموذجاً)

أ.د. معتوق جمال وأ. أوسرير محمد
جامعة سعد دحلب -البليدة-

Résumé :

الملخص:

L'éducation soufis demeure un des modèles éducatifs les plus vivants et frappants dans la philosophie éducative musulmane. A travers cet article on essaie de cerner ce modèle et surtout connaitre les fins fonds de cette pratique et son action socialisante comme rempart protecteur du mal et des différentes formes de déviance.

لا شك أن التربية الصوفية الإسلامية تشكل حصانة قيمية وسلوكية ضد الانحراف، من خلال تجلياتها الإيمانية والروحية والذهنية التي تتمظهر في ممارسات اجتماعية تجعل من أصحابها نماذج يحتذى بها في السلوك السوي، لأنها تعطي انطبعا جيدا عن ما يجب أن يكون عليه الفرد وهو يتفاعل مع جميع عناصر البنية المجتمعية التي يوجد بها، الأمر الذي يمنح للتربية الصوفية أهمية استثنائية في تحقيق الوقاية من السلوك الانحرافي.

تمهيد

السلوك الإنساني في أبعاده الاجتماعية والأخلاقية والثقافية أساس عملية لتفاعل الاجتماعي المفضية إلى تنظيم الحياة الاجتماعية ونسج العلاقات الاجتماعية وتحقيق الوضع الاجتماعي المثالي سواء على مستوى تقسيم العمل أو كفاءات توزيع الأدوار وطرق الحصول على المكانة والأساليب المقبولة لممارسة الرغبات والميولات والسعي لتحقيق الأهداف والغايات وممارسة الطقوس والشعائر الدينية وتبادل العواطف والأفكار والمصالح والمنافع و تطوير آليات الاتصال وغيرها.

غير أن هذه الصورة المثالية والسوية للسلوك ليست دائمة الحدوث والاستمرار في جميع المجتمعات الإنسانية عبر جميع فترات التاريخ، ذلك أن تعقد شروط وظروف ممارسة لحياة الاجتماعية وتشعب نسيج العلاقات الاجتماعية وتعدد طرق التفاعل الاجتماعي واختلاف المصالح الفردية والجماعية وظهور أنماط سياسية وثقافية جديدة تعتمد على منح المزيد من الحريات للأفراد على حساب القيم والمعايير وأدوات الضبط

— دفاثر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

الاجتماعي، كل هذا يمكن اعتباره في إطار التاريخانية محفزا مباشرا لظهور السلوك الإجرامي والانحرافي في بادئ الأمر ثم تعميمه في النهاية.

وعليه سنحاول في هذا الإطار تناول إشكالية الوقاية من السلوك الإجرامي والانحرافي من خلال التعرض للقيم التربوية الصوفية التي تعمل على إعادة الاعتبار للقيم الروحية وفعاليتها في تنظيم الحياة الاجتماعية وإعادة صياغة السلوك الاجتماعي وفقا لقيم الأخلقة والذوقية الجمالية والتفاهم الاجتماعي.

وانطلاقا من هذه المقدمات المعرفية نطرح مجموعة من التساؤلات الجوهرية قصد محاولة معالجتها كمحاولة لاستقراء التراث التربوي الإسلامي والصوفي على وجه التحديد، وفق سياق تحليلي نستعرض من خلاله التركيبة المفاهيمية للصحة الإيمانية من المنظور الصوفي، وما هي الأدوات والمنهجيات التربوية التي تدعم الصحة الإيمانية لدى الفرد الصوفي؟، ثم ما هي قدرة الصحة الإيمانية في الوقاية من السلوك الإجرامي والانحرافي؟، وما هي البدائل المطروحة والمقترحة في مفهوم الصحة الإيمانية لتجاوز رهن الفعل الإجرامي؟

2- مدخل لفهم الصحة الإيمانية:

اهتمام القرآن الكريم بالإيمان اهتمام مبدئي وثابت منذ بديّة نزوله على صدر النبي صلى الله عليه و سلم، فالحالة الإيمانية الراقية والمنتجة للقيم الاجتماعية السوية والمثالية كانت ذات بعد استراتيجي واستطاعت النبوة المحمدية إيصالها إلى الأمة قولا و عملا، وقد كان نزول الصور القرآنية في المرحلة المكية تؤكد بشكل واضح العناية بالجانب الإيماني لإنتاج الشخصية المسلمة النموذجية التي تعي جوهر الرسالة و تستطيع الثبات عليها والتضحية من أجلها، وهذا يعني أن القرآن جعل الإيمان الأرضية الأساسية لتحقيق الخلاص من قيود الجاهلية وسلوكاتها المنحرفة والإجرامية المتخلفة و ضمان إنتاج أمة الخيرية المنشودة التي ترقى بالإنسانية عقائديا وفكريا واجتماعيا وسلوكيا.

— أ.د. معتوق ج وأوسرير م: الصحة الإيمانية والوقاية من السلوك الإنحرافي

فالإيمان بالمنظور الإسلامي يتجاوز الأبعاد والحقائق الغيبية المحصورة في قول النبي صلى الله عليه وسلم "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر و بالقدر خيره وشره" (1)

وهذه الغيبيات شرط أساسي في تحقيق العقيدة القوية والإيمان العميق والوصول إلى الانتماء الفعلي والعملي للمجتمع المسلم، وهذا ما يصوره القرآن الكريم: "وقالت الأعراب أمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا و لما يدخل الإيمان في قلوبكم" (2) ويعني ذلك أنه يمكن ادعاء الإسلام لكن هذا ليس مكنًا مع الإيمان، ذلك أن الإيمان قوة نفسية تقود الإنسان إلى حيث يحقق اختاربه بين التقوى و الفجور فيحقق بإلهامها النجاح أو الخيبة ويحقق السلوك السوي أو السلوك الإنحرافي، وبهذا المعنى يصبح الإيمان ترجمة حقيقية للنفس الإنسانية في شكل تفاعلات اجتماعية وأفعال رمزية تحمل دلالة قوة الإيمان وتجذره في نفس صاحبه، إذ لا معنى للحالة النفسية الإيمانية إذا لم تتحول إلى سلوك تفاعلي يومي يبرز مميزاته وقوته في التعامل مع الناس والتأثير الإيجابي في الوسط الاجتماعي الذي يوجد فيه.

وعليه فالصحة الإيمانية تنطلق من هذا المعنى الجوهرية الذي يحمله الإيمان في الإسلام، أي تنتقل من تجاوز النظرة القاصرة لدى العامة حول الإيمان المبنية على عدم التأمل الكافي في النصوص الشرعية، أو لعدم عرض هذه النصوص على واقع السيرة النبوية الشريفة، أو لسوء توظيف الحوادث التاريخية حتى وإن كانت مخالفة لجوهر الإسلام (3)، تنتقل من هذا إلى بناء مفهوم عملي وإجرائي يعيد للإيمان معانيه ومقاصده الحقيقية.

لذلك يمكن القول أن الصحة الإيمانية هي حفاظ المسلم على مستوى من الإيمان يؤدي به إلى تطبيق الأوامر المطلوبة شرعا، وتفادي المحظورات والمنهيات والمحرمات شرعا، والتي تؤدي به في النهاية إلى تحقيق وتمثل ثمرات الإيمان، فالصحة الإيمانية لا تفترض بقاء المسلم على مستوى واحد أو حالة واحدة من الإيمان، كما أن هذا المستوى الإيماني يجب أن يضبط بضابط واضح وهو الشرع الإسلامي ومقاصده، فالصحة الإيمانية تتعدى مفهوم العبادات من صلاة وصيام وغيرها إلى شواهد عملية أخرى تضبط حركات وسكنات الإنسان وجلواته وخلواته وأقواله وأفعاله و تفكيره وسلوكه

— دفا تر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

مع نفسه ومع الآخرين ومع ربه ومع كل شيء فإثبات الصحة الإيمانية لا يمكن أن يكون بمنأى عن تقوى الله وتمثلها في كل شيء مع المحافظة على تمثل الهدي النبوي الشريف، كما أن من أهم صفات الصحة الإيمانية الاعتراف بجوهر الإنسان المتميز بالضعف والتقصير والفتور والخمول، أي أن الصحة الإيمانية لا تعني أبدا تجاوز هذه الحقيقة ولكنها تفرض مسارا إيجابيا يفترض عودة الإنسان إلى ربه كلما تسلفت إلى قلبه مؤشرات التقصير والفتور والخمول والعودة السريعة إلى تمثل الهدي الرباني العظيم و النبوي الشريف.(4)

وللصحة الإيمانية عناصر أساسية تشكل بنيتها التربوية والمعرفية يمكن عرضها في

المفردات التالية:

أ- الضروريات: والتي تشمل الجانب الإيماني التعبدي بما فيه من روحانيات وخشوع و بقاء و إدراك جوهر العبادة بجميع تجلياتها من صلاة و صوم و زكاة و حج وما تنتجه من تقويم للنفس الذي يتجلى في سلوك اجتماعي متوازن و متخلق و متضامن و متماسك، فأداء العبادات على صورتها الصحيحة و المطلوبة تظهر أثارها على الحياة اليومية بحيث تتشكل في مظاهر الالتزام بالقيم الاجتماعية و الممارسة الجيدة للضبط الاجتماعي.

ب- المحظورات: والتي تعني الممنوعات أو المحرمات بنوعها المباشرة و غير المباشرة، فأما المحرمات المباشرة كشراب الخمر و السرقة و القتل و الزور و الغش و الربا و الرشوة و غيرها، أما المحرمات غير المباشرة فتتعلق كالمخاطر التي لا ترضي الله عز و جل و التي تجول في النفس و التي يكون فيها للشيطان حض وافر، و مما يسجل هنا كملاحظة سوسولوجية هو أن هذه المحظورات تقوم على أساس تحريم السلوكات الانحرافية و الإجرامية غير المقبولة اجتماعيا فمن أهم وظائف الصحة الإيمانية محاربة الانحراف على مستوى الفكر و النفس و السلوك و لكن ليس بالطريقة المعهودة وإنما من خلال عملية تربوية استباقية متكاملة سيأتي الحديث عنها فيما بعد.

ج- الوقائيات: والتي تعني بعث الممارسات التي يمكن أن تعيق صحة الإيمان و تجعله غير مؤثر بالصورة المطلوبة، لذلك يجب الوقاية منها على سبيل المحافظة

— أ.د. معتوق ج وأوسرير م: الصحة الإيمانية والوقاية من السلوك الإنحرافي

على فاعلية الفعل التعبدي، ومن هذه الممارسات كثرة النوم و كثرة الأكل و كثرة الضحك و كثرة الخلطة وغيرها، ويلاحظ كذلك أن هذه الممارسات تشكل مقدمات نفسية واجتماعية تفتح الباب واسعا أمام صناعة السلوك الإنحرافي.

د - المعينات: وهي بعض الممارسات الدينية والاجتماعية التي تعين على ضمان استمرار التأثير الإيجابي للصحة الإيمانية على الفرد والمجتمع، ومن هذه الممارسات زيارة القبور والتفكير والصدقة وقيام الليل وكفالة اليتيم والخلوة وعبادة المريض وقراءة سير الصالحين وغيرها، ويلاحظ أن هذه المعينات هي مولدة للطاقة الإيمانية من جهة ومؤسسة لفعل التضامن الاجتماعي الذي يساهم في الوقاية من الانحراف.

ولكي تبق الصحة الإيمانية فعالة وأكثر مردودية في فعلها الاجتماعي فإنها تفرض منهجية فريدة في الوصول إلى المعنى الحقيقي للإيمان تتمثل هذه المنهجية في المحاسبة، والتي تتم عبر ثلاثة مراحل أساسية، تكون ابتداء بالمحاسبة قبل الفعل، من حيث إدراك عواقبه وما يترتب عنه من نتائج وما مدى توافقه مع الشرع الإسلامي، ثم المحاسبة أثناء القيام بالفعل، وهي خطوة تدل على المراجعة الدائمة والمستمرة قصد ضمان عدم توجه الفعل لغير مقصده الديني التعبدي أو مقصده الاجتماعي والسلوكي، ثم في النهاية المحاسبة بعد العمل، والتي تعني التقويم النهائي للفعل وما مدى توافقه و تناغمه مع الشرع ومقاصده و المجتمع وعرفه، فإن كان خيرا فهذا محفز على المثابرة والمواصلة، و إن كان عكس ذلك فهذا مدعاة للتوبة وتصحيح السلوك، أي معالجة السلوك الإنحرافي ضمن عملية ديناميكية تعيده في نهاية الأمر إلى الانسجام مع القيم الاجتماعية السائدة والمهيمنة وذا ما يمكن أن نسميه بلغة الشرع بالتوبة، وما يمكن أن نسميه بلغة لسوسيولوجيا بإعادة التأهيل والإدماج الاجتماعي.

ويمكن اختصار منهجية المحاسبة في قول ابن عربي: " كان أشياخنا يحاسبون أنفسهم على ما يتكلمون به وما يفعلونه وأحضرنا دفترهم ونظروا فيما صدر منهم من قول عمل و قابلوا كلا بما يستحقه، إن استحق استغفارا استغفروا وإن استحق التوبة تابوا أو شكرا شكروا، ثم ينامون، فزدنا عليهم في هذا الباب: الخواطر، فكنا نقيد ما نحدثه به نفوسنا ونهم به وحاسبها عليه" (5).

— دفاثر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

ومن خلال ما سبق ندرك الخطر الكبير الذي يتهدد البناء الاجتماعي بكل أنظمتها السياسية والاقتصادية والثقافية في حالة ضعف الصحة الإيمانية، بحيث يفقد الأفراد والمؤسسات القيم والمعايير الموحدة التي تصنع توجهاتهم السلوكية العامة و لمشاركة ليقع المجتمع بعد ذلك في فوضى القيم الشخصية المصلحية المتناحرة ويصنع الانحراف والإجرام مبررات وجوده الاجتماعي، لذلك جاء على لسان الإيمان المحاسبي قواه: "إذا صلح العبد صلح الله بصلاحه سواء، وإذا فسد العبد أفسد الله بفساده سواء" (6)

4- الصحة الإيمانية في بنية التربية الصوفية:

عند استعراض تفاصيل التربية الصوفية نسجل للوهلة الأولى أن التصوف الإسلامي كرياضة روحية و كتمارين سلوكية يقوم أساسا على تدعيم مفهوم الصحة الإيمانية، فقد اشتغل اللسان الصوفي كثيرا بتربية البعد الإيماني في الفرد، سواء على مستوى الوجدان أو على مستوى السلوك الاجتماعي، فالصحة الإيمانية بالمنظور الصوفي تنطلق من العناية المركزة بالروح الإنسانية واعتبارها المحطة الأولى والأساسية في مسار التزكية والارتقاء الصوفي عامة، و ضمن هذا الإطار جعل التصوف المراقبة الإطار العام الذي تتم من خلاله جميع الممارسات الدينية و الدنيوية، بحيث يحفظ هذا الإطار الفرد الصوفي من احتمالات الانحراف، فيصبح هذا الفرد داعية للحق ومصلح لما فسد من السلوك والأخلاق فهو طبيب يعالج الأنفس المريضة ويأخذ الناس والمجتمعات من مواقع الردى والهلاك إلى مواقع النجاة فهو سفينة الحق فلا غنى عنه في كل زمان ومكان، لذلك أقام الحق له مقام الحق في كل لأزمان والعصور (7).

وتأخذ الصحة الإيمانية في التربية الصوفية تشكيلات متميزة تتوزع عبر مقامات متنوعة لا يمكن إيجادها في غيرها، فهذه الصحة تتجلى في الاستقامة على أحكام الشريعة وجمع الهمة على الثبات فيها من غير انحراف وبعيدا عن نزعات الشيطان وخطرات النفوس المريضة وهواجسها و تجاوز الخطوط المتعرجة الفاسدة، ثم التحلي بعد ذلك بالأدب الحسن أو كما يقول الإمام الطوسي "نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم" (8)، وهذه الاستقامة تقود الفرد إلى المعرفة الحقيقية بالله تعالى كخطوة أرقى في الصحة الإيمانية بالمنظور الصوفي، والمعرفة في التربية الصوفية

— أ.د. معتوق ج وأوسرير م: الصحة الإيمانية والوقاية من السلوك الانحرافي

شجرة غرسها الله في قلوب الموحدين فبقدر التربية تكون ثمرتها كما يشير إلى ذلك الحكيم الترمذي⁽⁹⁾، وتزداد الصحة الإيمانية رقيا في التربية الصوفية بالوصول إلى إعادة صياغة الوجدان الصوفي بمفاهيم إيمانية روعي خالصة وهي بالمنظور الصوفي أحوال يكون عليها القلب الصوفي المتمتع بالصحة الإيمانية الجيدة، ومن هذه الأحوال حالة الحب، الذي يعتبر عند الصوفية منهجية متكاملة المفاهيم والوسائل التربوية، تنطلق من التعلق بالذات الإلهية وما يقتضيه من معاداة للنفس وشهواتها، ليؤدي في النهاية إلى تسامي الأنا في معراج تصاعدي يجعل الفرد يتخلق عمليا بأخلاق الألوهية.

ومن أحوال الصحة الإيمانية الصوفية الجيدة حالة الزهد، الذي يعني التجرد الكلي من الدنيا وما فيها من مقتضيات العمل والصراع على الكسب والحصول على المادة، فالصحة الإيمانية الصوفية تفرض على الصوفي قطع العلاقة مع الدنيا وملذاتها مما يرتب للفرد جوبا أخلاقيا مثاليا بعيدا كل البعد عن مسببات ودوافع الانحراف.

ومن أحوال الصحة الإيمانية الصوفية أيضا حالة العزلة التي تعني المحافظة على نسق عال من الرياضة الروحية عن طريق رفض ممارسة التفاعل الاجتماعي بصورة السلبية والانحرافية والاكتفاء بالحد الأدنى من المخالطة الاجتماعية وفي حدود ما يضمن التواصل الايجابي حول القضايا المعيشية الضرورية، وهكذا فإن العزلة الصوفية ميكانيزم أساسي وحساس في ضمان الصحة الإيمانية الجيدة، وهذا ما يترجمه عبد المجيد الشرنوبى حينما يقول: "على الصوفي أن يعتزل الخلق الذين لا خير فيهم ويترك فعلهم"⁽¹⁰⁾.

وتزيد الصحة الإيمانية الصوفية في تحكها في الفرد الصوفي من خلال حالة التوكل، وفيه تتجلى فاعلية التربية الصوفية في صناعة السلوك الصوفي المثالي والفريد، فحال التوكل يعني وصول الفرد الصوفي إلى حالة وجدانية وروحية راقية لا تعترف بسلطة الوجود المادي غير عابئة بشظف العيش وقلة الأرزاق والموارد وتدهور الظروف الاجتماعية المعيشية والاقتصادية، فالجوع عند المتوكل هو شبع الروح وإعمار الباطن بأجمل السمات الأخلاقية، وقمة المتاع عند المتوكل هو النزر اليسير

— دفا تر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

الذي يحقق الضروري من القوت الذي يقوي البدن على الطاعة ومواصلة الرياضة الروحية.

وتتجاوز التربية الصوفية بمفهوم الصحة الإيمانية من الحقيقة الوجدانية إلى الحقيقة الاجتماعية والسلوكية، فحتى تظهر كمالات الصحة الإيمانية على الصوفي يتعلم كيف يزهد فيما عند الناس من خلال عدم الطمع فيما عندهم من مال وسعة الرزق، لذلك جعل بعض شيوخ التصوف العمل والتكسب خلقا صوفيا أساسيا يعصم الصوفي من الحاجة إلى الناس من جهة، ويجعله يغض طرفه عن التكسب الحرام من جهة أخرى، بل إن الإمام الشعراني يذهب إلى أبعد من هذا حينما يعتبر العمل والتعب والشقاء أفضل واعظ وناصح وأفصح من أي فقيه أو شيخ أو مرشد لأنهم يصلون بالنفس إلى الحد من كبريائها وقطع غرورها والاعتزاز بقوتها فتتعلم التواضع وتقطع عنها الراحة والتساهل⁽¹¹⁾.

كما أن من المظاهر الاجتماعية المعبرة عن الصحة الإيمانية في التربية الصوفية التضامن الاجتماعي والذي يسميه البعض بالتضامن الصوفي، بحيث تقتضي الصحة الإيمانية الصوفية الجيدة ممارسة التضامن على وجهين أساسيين هما: التضامن داخل الطريقة الصوفية خاصة بين الشيخ والمريد، فالشيخ بعد التعليم موجود أساسا من أجل إغاثة المريد ونصحه، وكذلك بين المريرين أنفسهم في إطار مبدأ الأخوة الذي يقتضي تبادل المودة والمساعدة، أما الصنف الثاني من التضامن الصوفي فيمارس مع سائر الفاعلين في البناء الاجتماعي، هذا التضامن الذي يتجاوز مفاهيم القرابة والانتماء القبلي والعشائري من خلال تسخير الزوايا وجعلها مركزا اجتماعيا لمساعدة الفئات المحتاجة والمحرومة خاصة الشيوخ والنساء والفقراء والأرامل حيث يتولى المتصوفة توزيع عليهم الصدقات وكسوتهم وإطعامهم.

وهكذا يتجلى لنا أن التربية الصوفية تعمل على الوصول بالمريد الصوفي إلى أعلى درجات الصحة الإيمانية من خلال مسارين، المسار الروحي و الوجداني والمسار الاجتماعي والسلوكي، بحيث يجب أن توضع هذه الصحة الإيمانية في خدمة المجتمع

— أ.د. معتوق ج وأوسرير م: الصحة الإيمانية والوقاية من السلوك الإنحرافي

أخلاقيا من خلال الوعظ والإرشاد، واجتماعيا من خلال صناعة السلوك الاجتماعي السوي الذي يحفظ الأمن الاجتماعي ويساهم في تحقيق التوازن و الاستقرار.

5- الصحة الإيمانية الصوفية وفك الارتباط مع الانحراف:

الوقاية من الانحراف هي أهم مقصد من مقاصد الصحة الإيمانية الصوفية، بحيث يحمل الفكر التربوي الصوفي تصورا دقيقا ومسطرا استباقيا للأهداف الأخلاقية والسلوكية المراد الوصول إليها، لذلك فإن مبدأ التنمية الإيمانية المستديمة هي الأداة التربوية التي تستطيع الوقاية من الانحراف أو فك الارتباط مع السلوك الإنحرافي، وعليه سنحاول هنا تحديد مفهوم الوقاية أولا، آليات الوقاية التي تمارسها الصحة الإيمانية الصوفية ثانيا.

أ- في مفهومية الوقاية من الجريمة:

من الضروري على كل المجتمعات الإنسانية أن تضع في صميم برامجها التربوية والتنموية مفهوم الوقاية ضمن أولى الأولويات، ذلك أن الوقاية تعني التهيئة الاجتماعية المسبقة لاجتثاث أسباب ودوافع السلوك الإجرامي والظروف الاجتماعية والنفسية المساعدة في الاتجاه نحو هذا السلوك، و على هذا فإن الوقاية هي منظومة تربوية اجتماعية متكاملة تتضمن المعرفة المسبقة بأسباب الجريمة في الوسط الاجتماعي وفي ظل التفاعلات والتجاذبات والعلاقات الاجتماعية والقيم والمعايير والثقافة الاجتماعية المهيمنة والمسيطرة، قصد تلافي حدوث السلوك الإجرامي أو الحد من مخاطره وانتشاره والتقليل من مخاطره وإفرازاته المختلفة، و هي فعل اجتماعي متكامل الأبعاد التنموية النفسية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والقانونية التي تضمن تحقيق الظروف المثالية و الإيجابية لممارسة الحياة بجميع تشكيلاتها الفردية والعاطفية والجماعية الأسرية والتعليمية والمهنية بحيث يبادل الجميع علاقاتهم الاجتماعية ويؤدون وظائفهم وأدوارهم ويتحصلون على مكانتهم الاجتماعية وفقا للنظام الاجتماعي المتبنى اجتماعيا بعيدا عن نوازع الاختلاف والصراع و الأثنية والأمراض النفسية وسائر السلوكات المنحرفة.

كما تعني الوقاية من السلوك الإجرامي التنشئة الاجتماعية المتكاملة والمتوازنة الممارسة على مستوى الأسرة أو المدرسة أو المؤسسات الدينية والإعلامية ومؤسسات

— دفاثر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

المجتمع المدني وغيرها، هذه التنشئة الاجتماعية التي يجب أن تفضي إلى إنتاج فرد نموذجي من حيث الامتثال الاجتماعي والقابلية للضبط وتسطير السلوك والأهداف والوسائل والممارسات الاجتماعية حسب ما يحقق الأمن الاجتماعي و يحفظ للبناء الاجتماعي بجميع مؤسساته الرسمية وغير الرسمية الاستقرار والأداء الوظيفي الجيد، الأمر الذي يتيح في النهاية تجنب العوامل الدافعة للجريمة، فتنمية حاسة التضامن الاجتماعي والتعاطف المتبادل مع أفكار و معتقدات الجماعة، و مقدار الإذعان لأوامر و نواهي المجتمع وجعل العواطف والغايات الفردية في توافق مستمر مع ما يخدم المصالح المشتركة، كل هذا يقوي المشاعر الإيجابية تجاه المجتمع ويخلق أنماط سلوكية إيجابية بالمنظور الاجتماعي تساهم في تحقيق السلامة للكيان الاجتماعي والتخلص من مظاهر الثقافة الفرعية أو الثقافة التحتية المسيطرة على بعض الجماعات أو الطبقات أو الفئات والتي تسود فيها عناصر جانحة رافضة ومتصادمة مع الثقافة الاجتماعية الغالبة وبالتالي اللجوء إلى الجريمة كتعبير عن هذا الرفض.

ومن معاني الوقاية من السلوك الإجرامي تهيئة المنظومة القانونية الردعية وتحسين طرق وأساليب إيصالها إلى الناس وتجويد عملية الإقناع بالالتزام بها والوقوف عند حدودها، فالنظرة إلى القانون ووظيفته يجب أن تتغير نحو إضفاء الصبغة الوقائية عليه، واستعماله كقوة وظاهرة اجتماعية ردعية و تخوفية من عواقب الخروج عن المجتمع وممارسة السلوك الإجرامي، فالاستعمال الاستباقي للقانون يساهم كثيرا في كبح جماح بعض من تدفعهم الظروف إلى الجريمة، وعلى هذا الأساس تصبح العملية التربوية داخل المدرسة محطة أساسية وضرورية للتدريب على التزام القانون وكذلك التعرف على تبعات أي سلوك يخترق منظومة القوانين الاجتماعية الوضعية أو الدينية أو العرفية منها.

ب - منهجية الصحة الإيمانية الصوفية في الوقاية من الجريمة :

تضع التربية الصوفية للسلوك أصول وقواعد محددة ومضبوطة، وفيها تتجلى قدرة الصحة الإيمانية الصوفية في إدراك السلوك المثالي المتزن والبعيد عن الجريمة والانحراف، فالسلوك الصوفي يبني على أساس إتباع الحق الثابت الذي لا يجوز إنكاره

— أ.د. معتوق ج وأوسرير م: الصحة الإيمانية والوقاية من السلوك الإنحرافي

لأنه هو المطابقة الحثيثة لله تعالى فيما يفعل وفيما يشرع، أي هو الوصول إلى حقائق الأشياء ودقائقتها والانقياد بقانون الشريعة مع قلة الاكتراث بمن يعترض عليه لذلك كل شيء يقف ضده يسمى باطل⁽¹²⁾، فمنطلق كل السلوكات الإنسانية في منظور الصحة الإيمانية هو التزام الحق في كل شيء وتجنب الباطل في كل شيء، الأمر الذي يفيد أن الصحة الإيمانية لها قدرة خارقة على إنتاج الشعور والإحساس بالمراقبة الإلهية للإنسان والتي تمنعه من اقتراف الخطيئة والسباحة في فلك الجريمة والانحراف، وإنما تحول الفرد إلى ساع في الأرض ينشد السلوك السوي ويتوخى الصرامة في احترام القيم و المثل الدينية التي يؤمن بها والتي تصنع ضميره وتحرك أفعاله، لذلك يظهر سلوك صاحب الصحة الإيمانية الصوفية الجيدة سويا و ملتزما وسهل الضبط الاجتماعي.

و لكي يكون للحق تأثير على الفرد تصورا وسلوكا فإن الصحة الإيمانية الصوفية تقتضي وجود مكنزم إيماني آخر قوي وفعال وهو مكنزم التزكية النفسية، الذي يعني صوفيا إعادة صياغة النفس الإنسانية وإعادة ترتيبها من خلال عمليتي التخليية والتحلية، فأما التخليية فتعني إفراغ النفسو إخلائها من كل مظاهر الشر والتعلق بالدنيا وحب العيش السهل والرغد وحب المال والسلطة والجاه والملك وإتباع الشهوات، وأما التحلية فتعني إعادة إعمار النفس بالتقوى والزهد والورع والخشية والرضا بالقليل وحب الفقر والفقراء وتجنب المعصية والفجور وكثرة الاعتزال للذكر والتفكر والتأمل والسعي في الخير والعمل الصالح وخدمة الناس وقضاء حوائجهم وإنصاف المظلوم وغيابة المكلوم والسعي في دروب العلم والتعلم واقتناء آثار العلماء الصالحين والأولياء والتخليي بخصالهم طلبا للقرب من الله، وبهذا تخطو الصحة الإيمانية الصوفية خطوة كبيرة نحو إبعاد الفرد من كل المؤثرات النفسية والاجتماعية التي من شأنها أن تدفع إلى صناعة السلوك الإجرامي، بحيث أن التزكية النفسية تصنع نموذجا سلوكيا يتقيد داخليا بضوابط ومعايير وقيم تدعو كلها إلى عدم التعلق بالدنيا ورف المكاسب المادية والمالية والمصلحية والسلطوية، التي هي عادة مدار كل السلوكات الإجرامية، فالصحة الإيمانية تعمل على بناء تصور جديد للحياة يتأسس على اعتبار الدنيا محطة للعمل الصالح ودار مؤقتة أو مرحلة انتقالية يترتب عليها مصير الإنسان في الآخرة، لذلك فمستقبل الإنسان الحقيقي يتحدد وفقا لنوعية سلوكه في الدنيا، ويعمل هذا

— دفاثر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

التصور على شحن الفرد بمعاني سامية وراقية تهذب أذواقه وتنظم أولوياته الاجتماعية والسلوكية التي تأخذ طابع الروحانية والسمت والوقار والانضباط الاجتماعي والديني الخالص، وكل هذا يجعل الفرد بعيدا كليا عن التجاذبات المادية والاجتماعية التي تؤدي بالكثير إلى الانخراط في عالم الجريمة، فيظهر سلوكه الاجتماعي في صورته النهائية سويا ومقبولا اجتماعيا.

غير أن هذه النظرة الشمولية لطبيعة ترقية الصحة الإيمانية في التربية الصوفية غير كافية لنسج معرفة سوسولوجية متكاملة حول قدرتها في الوقاية من السلوك الإجرامي وعليه سنعود إلى قواعد الصحة الإيمانية لنحاول عرضها على التربية الصوفية قصد التمكن من إجراء إسقاطات عملية على الوقاية من الإجرام:

. قاعدة الضروريات: كما أشرنا من قبل فإن قاعدة الضروريات تعني العبادات المفروضة وما يصحبها من بكاء وخشوع وتأثر وإخلاص وترجمة عملية لقدرة هذه الفرائض في بناء شخصية سوية.

وقد أعطت التربية الصوفية بعدا عميقا لهذه القاعدة خلافا لما هو سائد عند جميع الفرق والمذاهب الإسلامية، يتجاوز هذا البعد مفهوم أداء الفريضة كدين يقضى أو واجب يتقيد كل فرد بأدائه، إلى إنتاج علاقة ربانية فريدة تعمل على تهذيب النفس والإرتقاء بها إلى أسنى المستويات الروحية والوجدانية، لذلك عرف الحكيم الترمذي الصلاة بقوله: "إن الصلاة هي إقبال العبد على الله، وإقبال الله عليه فإن الله يقبل على العبد بحسب إقبال العبد عليه" (13).

الأمر الذي يجعل هذه العبادة مقام أيماني يرتسم بموجبه رقة القلب و سخاوة النفس وحياء الجوارح ورحمة المشاعر، فنثرة الإقبال الصادق على الله الوفاء لهم من الله الذي يجمل لهم أقوالهم وأفعالهم بمحاسن الرحمة وقوامه السلوك فتكفر عنهم سيئاتهم وتقبل لهم التوبة (14).

وهكذا تنثر الصحة الإيمانية في قاعدة الضروريات شخصية ذات بنية نفسية وسلوكية سوية ومتوازنة تتميز بأفضل الممارسات الأخلاقية التي تدعوا لها القيم الإنسانية النبيلة، فالصلاة بمنظور القاعدة الأولى من الصحة الإيمانية ضرب وضروب

— أ.د. معتوق ج وأوسرير م: الصحة الإيمانية والوقاية من السلوك الإنحرافي

المجاهدة التي تعني إرغام النفس على السلوك السوي والخضوع الكلي والتام للقيم ولمعايير والانتهاه عن المنكر والمعصية، لذلك يرى الإمام الترمذي أن الإنسان خلق بنفس عامرة بالأهواء والغرائز التي اتباعها يجر إلى الخطيئة و سيادة الجرم والمعصية ولجام هذا كله شأن من شؤون الصلاة⁽¹⁵⁾.

ونفس هذا الدور التربوي تقوم فريضة الصوم، حيث يرى الإمام المحاسبي في هذا الشأن أن الصوم عمل من أعمال القلوب والجوارح يصد خائنة الأعين وخطرات النفوس المريضة، ويهذب أفعال الجوارح فتنتفي بعد ذلك المعاصي وإيذاء الناس ومظاهر الفساد بين العامة والخاصة وتسود بينهم المودة والرحمة والتعطف والأمن والحماية و تتبين القلوب ما يكون من مسالك الحلال ومسالك الحرام⁽¹⁶⁾.

إن الملاحظ السوسولوجي لا يصعب عليه تماما أن يستنج الوظيفة الوقائية للقاعدة الأولى من قواعد الصحة الإيمانية والتي يمكننا إجمالها في المفاتيح الآتية :

— ترقية الطاقة الروحية والإرتقاء النفسي.

— التهذيب العاطفي والتوظيف والإشباع العاطفي المثالي.

— تنمية عقلية الامتثال القيمي والانضباط الأخلاقي.

— التدريب على السلوك السوي وتدعيم الأخلاق الاجتماعية الإيجابية.

— تفعيل النماذج السلوكية المثالية وتثبيت الخير المعمم.

— تحقيق مجال مشروع لتفريغ الطاقة وصناعة البدائل المقبولة اجتماعيا.

— صناعة جدار صد أمام الجريمة والانحراف وفرض القوامة السلوكية.

— قاعدة المحظورات: والتي تشير إلى الممنوعات المفروضة على الفرد، بحيث

تؤدي في مجموعها إلى مآلات إيجابية في تطهير الإطار الاجتماعي من كل

الممارسات الإجرامية والمنحرفة، لذلك يرى مشايخ وزعماء التصوف الإسلامي أن

الإرتقاء في مقامات التصوف يقتضي بالضرورة انصراف القلب والنفس والروح

والجوارح عن كل ما من شأنه أن يبعتها عن الصفاء الروحي والنقاء الوجداني، وهنا

نجد أن أبا حامد الغزالي يعرف التصوف في كتابه إحياء علوم الدين بأنه طريق

المجاهدة المضادة للشهوات ومخالفة الهوى في كل صفة غالبية على نفس المرید⁽¹⁷⁾،

وهذا يعني بالضرورة أن الأصل في التصوف الإسلامي ابتداء هو الوقاية من

— دفاثر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

الانحراف وتجنب المحظورات الذي يقود في النهاية إلى القدرة على ملازمة الطريق الصوفي، فالصحة الإيمانية في التربية الصوفية تعمل على تنمية حس الوقاية من الانحراف من خلال إيصال المعرفة بالعواقب والنتائج الوخيمة المترتبة عن كل معصية أو تقصير، أو كما يقول أبو سعيد الخراز: "إن العبد لما أمن بالله تعالى قامت في قلبه ولزمت فيه الخشية من عقاب الله الذي توعدده وصحت عند ذلك رغبته وقامت عزيمته في طلب النجاة مما يخافه، فجد عند ذلك في الطلب والهرب، فسكن الخوف والرجاء قلبه فركب عند ذلك مطية الصبر ومضى في إنفاذ العزائم" (18).

وعليه فإن التربية على تجنب المحظورات وبرمجة الأفراد منذ الطفولة على تجنبها عن طريق وحساسة في الوقاية من الجريمة، وذلك يؤدي في النهاية إلى بناء الرقابة الذاتية وتدعيم سلطة الضمير في تحريك ومراقبة وتقييم السلوك وربط كل ذلك بالمعاني الروحية الإيمانية التي لها سطوتها وتأثيرها البالغ في صياغة الشخصية وترتيب أنساقها السلوكية وفقا للنظام الديني المحدد لطبيعة الحلال والحرام، أي تحديد نوعية السلوك السوي والسلوك الإنحرافي الإجرامي وتنظيم طرق تدعيم السلوك السوي وطرق الوقاية ومعالجة السلوك غير السوي وغير المقبول اجتماعيا وأخلاقيا ودينيا.

وكما أشرنا في مفهوم الصحة الإيمانية فإن هذه الأخيرة لا تعني ثبات الفرد على مستوى عال من الإيمان والقوامة السلوكية، بل إنها تفترض التراجع في هذا المستوى واحتمال وقوع الفرد في بعض الانحرافات والانخراط في بعض المحظورات، لذلك تعمل الصحة الإيمانية على تجاوز هذه الانحرافات عن طريق استعمال مفهوم التوبة التي تعني تدارك الخطأ وتصحيح المسار الأخلاقي والاجتماعي، وإعادة الفرد إلى الحظيرة الاجتماعية والاندماج لممارسة الحياة الطبيعية في الوسط الاجتماعي، عن طريق الندم وعدم العودة إلى الخطيئة، وبالتالي قطع الصلة بصورة سريعة مع الجريمة والانحراف والعودة العاجلة إلى السلوك السوي، وفي هذا يقول أبو سعيد الخراز: "أول التوبة الندم على ما كان من التفريط والعزيمة على عدم العودة إلى شيء يكرهه الله، ثم رد كل مظلمة ولزوم الخوف والحزن، ترك الأصحاب الفجار ويطلب صحبة الأبرار" (19)، فالتوبة بمنظور الصحة الإيمانية الصوفية لا تعني فقط روحية، وإنما هي عملية

— أ.د. معتوق ج وأوسرير م: الصحة الإيمانية والوقاية من السلوك الإنحرافي

اجتماعية تعمل على إعادة تنظيم عملية التفاعل الاجتماعي وإعادة نسج شبكة العلاقات الاجتماعية قصد ضمان سيادة السلوك الاجتماعي السوي، وذلك من خلال إرجاع الحقوق إلى أصحابها الحقيقيين الأمر الذي يتيح انتشار التضامن والتكافل والوحدة الاجتماعية، أي أن التوبة تساعد على تفعيل التفاعل الاجتماعي الإيجابي، كما أن ترك مجموعة الرفاق الفاسدة أخلاقيا يعيد تنظيم العلاقات الاجتماعية وبنائها على أساس الانقياد للقيم الاجتماعية المسيطرة والمهيمنة، أي إعادة بناء العلاقات الاجتماعية على أساس أخلاقي يضمن تقادي بروز الثقافات التحتية والهامشية التي تثير الاختلاف والفوضى والسلوكيات المنحرفة والخروج عن الثقافة الاجتماعية. ويمكن اختصار تأثير القاعدة الثانية من الصحة الإيمانية في الوقاية من السلوك الإجرامي والإنحرافي في المؤشرات التالية :

- _ تنمية الاستعداد النفسي ضد الجريمة والانحراف .
- _ تعزيز الدافعية نحو محاربة الثقافة التحتية المنحرفة .
- _ تعزيز سلطة الرقابة الدينية والرقابة الداخلية .
- _ تنظيم التفاعل الاجتماعي وفق الحدود الشرعية الأخلاقية المضبوطة .
- _ نسج العلاقات الاجتماعية على أساس احترام الآخر وصيانة حقوقه .
- _ برمجة الأفراد على الالتزام بالقيم والمعايير واستدراك المسبق للإنحرافات المحتملة

❖ - قاعدة الوقائيات : وتعني بمنظور الصحة الإيمانية جملة السلوكيات و التصرفات التي يفضل على الفرد الصوفي تركها وتجنبها من باب الوقاية من الوقوع في لمحظورات لذلك جعلت التربية الصوفية الزهد والخلوة والعزلة والفقر والبكاء والخوف والصمت أدوات تربوية وقائية تجنب روادها كل احتمالات الزلل والخطيئة، وهذا ما يشير إليه إبراهيم بن الأدهم حين قال: " اعلم أنك لن تتال درجة الصالحين حتى تجوز ستة عقبات، أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة، وأن تغلق باب العز وتفتح باب الذل، وأن تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد، وأن تغلق باب النوم وتفتح باب السهر، وأن تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر، وأن تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للمت (20) .

— دفا تر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

إن القاعدة الثالثة من قواعد الصحة الإيمانية بالمنظور الصوفي هي في الحقيقة عملية احترازية الغاية منها صرف نظر المريـد الصوفي بعيدا عن كل ما يمكن أن يشغله أو يلهيه عن القيام برياضته الصوفية من جهة، وصرفه أيضا عن كل المؤثرات النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي يمكن أن تساعد في صناعة السلوك الإجرامي والانحرافي من جهة أخرى، فالمعنى الحقيقي للصحة الإيمانية الصوفية يتجلى في التخلي عن الملذات حتى وإن كانت مباحة ليس خشية من الله فقط، وإنما أيضا من أجل عدم تعويد النفس على مسالك الترف و الدعة و الراحة والكسل وكثرة القيل و القال والانشغال بالناس والسعي وراء الغنى المادي على حساب غنى النفس، فكل هذا يؤدي إلى إضعاف الشخصية ويهمل النسيج الأخلاقي للسلوك الأمر الذي يساعد أكثر على الانحراف في خضم السعي لإشباع مطالب النفس والبدن اللامتناهية، فالقاعدة الوقائية في الصحة الإيمانية الصوفية تمثل مرحلة متقدمة من مراحل فهم النفس الإنسانية و تدريبها على صيغ وآليات المجاهدة والمصابرة حتى تتمكن من الإرتقاء ومتابعة الحياة الاجتماعية في ظل الامتثال والتكيف الاجتماعي بعيدا عن ارتدادات المشاكل المطروحة على مدار الحياة اليومية للفرد والتي تجعل البعض يبرر الانحراف ويعطيه مسوغات وهمية تحت شعارات الظروف المادية الاجتماعية القاهرة . وقد اختارت التربية الصوفية لتقوية قاعدة الوقائيات في الصحة الإيمانية جملة من الممارسات التربوية التي تقوي معنى الوقاية وتعزز من فاعليتها، ومن بين هذه الممارسات العزلة في المجتمع، و العزلة في المجتمع لا تعني مطلقا العزلة السلبية و الانقطاع عن مزاولة الأنشطة الاجتماعية اليومية، وإنما هي من الناحية النظرية و عي عميق بالأنا والوعي بالأنا يتضمن حسب علماء النفس يتضمن الشعور والوعي بالآخرين أيضا، فالعزلة الصوفية هي الإنفراد بالنفس ومراجعة ما فيها وتحديد أركان الصواب والخطأ وتعديل النية وتجديد الإخلاص والصدق وحسن التوكل على الله لضمان سلامة السلوك عند الخروج على الناس في إطار التفاعلات الاجتماعية الحتمية، وقد وضع أبو حامد الغزالي قائمة طويلة من الفوائد الاجتماعية والسلوكية الأخلاقية التي تتيحها العزلة الصوفية، منها تقوية القدرة على التأمل العقلي الذي يجعل

— أ.د. معتوق ج وأوسرير م: الصحة الإيمانية والوقاية من السلوك الإنحرافي

السلوك أكثر قوامة وواقعية، وكذلك التخلص من المعاصي الناجمة عن المخالطة الفوضوية غير المدروسة، وكذلك التخلص من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة والنجاة من الأمور المهلكة للدين كالغيبة والنميمة والانشغال بأعراض الناس، وكذلك الخلاص من الفتن والخصومات ومظاهر الحرام كالحروب والقتل والسرقة والفساد، وكذلك الخلاص من فساد الناس وشهرهم وإيذائهم لك بالأعمال والأقوال وتأثيرهم عليك فنتجر إلى فعلهم المشين، وكذلك ليتخلص الناس من شرك وسوء سلوكك إذا كنت سيء الطبع و سيء التصرف والعشرة (21).

ومن بين الممارسات التربوية التي تعزز معنى الوقاية في الصحة الإيمانية، الجوع الصوفي، الذي يعني عندهم التفرغ من شبع البطن الذي يؤدي إلى انغلاق العقل وظلام القلب وافتضاح الشهوة، الجوع إذن هو مفتاح الباطن ومحي الملكات وهو طعام الصديقين ومسلك المريدين وقيد الشياطين، فخرج آدم من الجنة وابتعاده عن ربه كان من أجل لقمة كما قال الإمام الهجويري (22)، و يظهر من هذا المعنى أن الجوع الصوفي أداة شديدة الفعالية في محاربة الغرائز والنوازع النفسية الشهوانية التي يجر اتباعها إلى الانحلال والانحراف والجريمة، وتساهم كثيرا في الاقتراب من الطاعة واجتتاب المعصية، بحيث يصبح السلوك نتاج لجهد عقلي وتفكير تأملي متوازن وحكيم يراعي المنطلقات الدينية والأخلاقية والاجتماعية السليمة ويقدر جيدا النتائج الإيجابية المترتبة عنه سواء على مستوى النفس أو على مستوى المجتمع.

ويمكننا أن نلخص أهمية القاعدة الثالثة من قواعد الصحة الإيمانية الصوفية في الوقاية من السلوك الإجرامي والانحرافي في المؤشرات التالية:

_صناعة المناخات والأطر المناسبة لممارسة السلوك السوي.

_التهذيب النفسي وصناعة الاستعداد لمواجهة الأزمات بعيدا عن الإجرام و

الانحراف.

_صناعة القابلية للتأقلم الإيجابي مع المتغيرات الطارئة دون خلل سلوكي أو نفسي.

_بناء السلوك على معايير القيم والدين والعقل.

_تعزيز قيم الاصطفاء للأقران حسب مواصفات الدين والقيم الاجتماعية

— دفاثر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

❖ - **قاعدة المعينات:** والتي تعني في إطار الصحة الإيمانية الصوفية الأعمال غير المفروضة التي تعين الفرد الصوفي على بلوغ كمالات الشخصية والسلوك، وهي ممارسات عديدة ومتنوعة، وكلها تساعد على تجنب الغفلة ومواجهة المتاعب والفتن والأزمات المختلفة بنفسية مرتاحة مطمئنة وهادئة ويردود أفعال سامية وراقية في حدود التجاوب المنتظر اجتماعيا وأخلاقيا، وهذه المعينات تساعد النفس على التألق والتعالي عن الصغائر والملذات العابرة وسفاسف وصغائر الأمور، التي عادة ما تكون مقدمات للانحراف، لذلك عرف أبو نعيم الأصفهاني المتصوفة بقوله: "هم الواصلون بالحبل و الباذلون للفضل والحاكمون بالعدل، هم المبادرون بالحقوق من غير تسويق، لهم الأحوال الشريفة والأخلاق اللطيفة، هم السفراء للخلق الأسراء لدى الحق" (23)، فالتربية الصوفية تشغل وقت الصوفي بهذه المعينات التي يضعها في خدمة نفسه وخدمة مجتمعه، لذلك تجده على الدوام منشغلا عن المعاصي والسلوكات السيئة المشينة، وبهذا تتحرر طاقته النفسية من قيود الغرائز وقوى الانحراف والإجرام وينطلق نحو ممارسة حياته وتحقيق أهدافه في تناغم كلي مع الأهداف والغايات الاجتماعية المشتركة.

ومن هذه المعينات المساعدة على الوقاية من السلوك الإجرامي الخلوة، وهي لا تعني العزلة، وإنما هي سلوك مرحلي يتم في مراحل متقطعة تستمر عند بعض المتصوفة من ثلاثة إلى أربعين يوما، الهدف منها الابتعاد عن الضجيج والتوتر والتحرر من الضغوطات اليومية، والتفرغ لمواجهة النفس والغوص في أعماق الباطن وتنشيط معاني الذوق وسلامة السلوك، وإعادة الارتباط بالتراث الديني الأصيل (24)، ويلاحظ على هذه الخلوة أنها تعمل على التهذيب النفسي وتحقيق التعامل المثالي مع الرياضة الروحية وإدماج الفرد في الفهم الصحيح للتراث وكيفيات التعامل معه بعيدا عن التطرف والتشدد وبعيدا أيضا عن التقريط والانسلاخ عنه.

ومن هذه المعينات التي تساهم في الوقاية من الجريمة في إطار الصحة الإيمانية الصوفية محبة الناس والقيم على خدمتهم وصرف الجهد في تحقيق مصالحهم والدفاع عن حقوقهم ونصرتهم، وفي هذا المعنى أشار الإمام الترمذي في قوله: وهكذا تتحول

— أ.د. معتوق ج وأوسرير م: الصحة الإيمانية والوقاية من السلوك الإنحرافي

المحبة بمنظور الصحة الإيمانية الصوفية إلى إطار لتقديم مبدأ الخدمة الاجتماعية، فيسخر الفرد الصوفي نفسه لخدمة الناس بجميع شرائحهم من فقراء و نساء و طلبة العلم و المسافرين والمرضى وغيرهم، ومن نافلة القول أن الفرد الذي يحمل هذه المعاني والمشاعر ويؤمن بهذه المبادئ فرد فعال وإيجابي يتميز سلوكه بالصيغة الأخلاقية المحمودة و المطلوبة اجتماعيا، أي أن المحبة قوة نفسية واجتماعية حقيقية تصنع حاجزا منيعا ضد الجريمة وفرض قيم المحبة و التواضع و اللين الإيثاري والتعاون، مما يخلق إطارا اجتماعيا فريدا يحترم المبادئ والقيم و الحقوق والعدالة الاجتماعية .

ويمكن اختصار أهمية قاعدة المعينات في الصحة الإيمانية الصوفية على الوقاية من السلوك الإجرامي في المؤشرات التالية :

- _التدعيم النفسي والاجتماعي لممارسة السلوك لسوي.
- _توفير المرجعية الدينية المؤيدة للسلوك الاجتماعي السوي.
- _محاربة الفراغ الروحي والنفسي الذي قد يملؤه البعض بالسلوك الإجرامي .
- _التدعيم الأخلاقي وتنمية الحس الاجتماعي
- _التدريب على العطاء والمنح بدل المطالبة والمغالبة .
- _صناعة النفسيات ذات الهمم العالية والنفسيات الإيجابية .
- _تحرير الطاقة النفسية من قيود الشهوات والغرائز اللاإخلاقية .

- 6- الخاتمة :

من خلال هذا العرض لمعاني الصحة الإيمانية في إطار التربية الصوفية ننتهي إلى القول بأن مفهوم الصحة الإيمانية مفهوم حيوي وحساس له قدرة كبيرة على الوقاية من السلوك الإجرامي والإنحرافي، وصناعة السلوك الاجتماعي السوي، ذلك أن الصحة الإيمانية الصوفية هي في الأصل ذوقا ووجدانا وسلوكا ومقاما وحالا، لذلك هي أداة لترقية النفس والحصول على الوعي اللامتناهي في الكمال الذي يجعل الأفراد ينسحبون من الحياة بتفاصيلها المادية الصرفة المفضية إلى الفراغ الروحي والصراع والانتكفاء على المكاسب المادية والسعي وراء تحقيق الرغبات والانقياد وراء الشهوات والنزوات التي تؤدي في الكثير من الأحيان إلى تعزيز القابلية في صناعة السلوك الإجرامي

— دفاثر مخبر المسألة التربوية في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

والإنحرافي، في المقابل تدعو إلى الانخراط في الحياة بمعانيها الاجتماعية السامية القائمة على احترام القيم والتماثل الفردي والجماعي مع الثقافة الاجتماعية المهيمنة، كل هذا يجعل البناء الاجتماعي يستمر في حالة من التوازن والاستقرار بعيدا عن المحددات السلوكية السلبية الأخرى .

فالصحة الإيمانية تعيد الإنسان إلى القيم الذوقية والجمالية وتبعده عن مخلفات الحداثة التي فرضت قيمها المادية القائمة على الفردانية والذاتية والعقلانية والأنانية وهيمنة الاستهلاك الغرضي الأدائي والذرائعي الذي يبرر كل الوسائل من أجل تحقيق الغايات الشخصية، فالعلاقات التبادلية القائمة على تبادل المصالح والمنافع المادية دون إلقاء أي بال للقيم والمعايير ومظاهر الوحدة الاجتماعية الثقافية تحول السلوك الإنساني إلى سلوك نمطي وألي خال كليا من الروح والوجدانية مما يجعله سلوكا فاقدا للشرعية الأخلاقية، لذلك فاللجوء إلى الصحة الإيمانية يجعل من السلوك قائم على مبدأ الحافزية الدينية والرمزية الروحية والدلالة الوجدانية، فيتمظهر بعد ذلك في صور وأشكال مثالية وسوية ومقبولة اجتماعيا .

وحتى نستطيع الوصول إلى تفعيل الصحة الإيمانية في ترتيب السلوك الاجتماعي السوي والوقاية من السلوك الإجرامي والإنحرافي نوصي بالنقاط بالملاحظات التالية:
-إعادة قراءة وإنتاج التراث التربوي الصوفي وإعادة تقويمه بما يتوافق مع روح الشرع ومتطلبات الراهن الاجتماعي.

-إدراج مفاهيم الصحة الإيمانية ضمن المنظومة التربوية .
-دفع البحث العلمي السوسولوجي والتربوي والنفساني لترقية مفاهيم الصحة الإيمانية صد إدراجها ضمن مواضيع هذه العلوم .
-تدعيم مفاهيم الصحة الإيمانية في الممارسة الاجتماعية ضمن وظائف مؤسسات التنشئة الاجتماعي .

-تدعيم صناعة الحافزية في تلقي علوم التربية الإسلامية وإدراج الملتقيات العلمية المتخصصة قصد تحويل هذه العلوم إلى مناهج تعليمية وحياتية.

قائمة المراجع:

— أ.د. معتوق ج وأوسرير م: الصحة الإيمانية والوقاية من السلوك الإنحرافي

- 1-الإمام النووي، الأربعين النووية، دار النشر والتوزيع الإسلامية، القاهرة، 1999، ص8
- 2- سورة الحجرات، الآية 14
- 3-علي بن حمزة العمري، الصحة الإيمانية، دار بن حزم، بيروت، 2008، ص11
- 4-نفس المرجع، ص ص 13-14
- 5- محي الدين بن عربي، رسالة المسترشدين، دار المعرف، بيروت، 2000، ص 71
- 6-نفس المرجع، 63
- 7-سعيد مراد، التصوف الإسلامي رياضة روحية خالصة، دار العين، القاهرة، 2007، ص 89
- 8-نفس المرجع، 98
- 9-الحكيم الترمذي، المسائل المكنونة، دار التراث العربي، القاهرة، 1980، ص133
- 10-عبد المجيد الشرنوبلي، تائبة السلوك إلى ملك الملوك، دار الكتاب العلمية، بيروت، 2007، ص10
- 11- الإمام الشعراني، الطبقات الكبرى، دار التراث العربي، القاهرة، 1970، ص82
- 12- أحمد عبد الكريم السايح، الحكيم الترمذي ونظريته في السلوك، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2006، ص 148.
- 13- الحكيم الترمذي، الصلاة ومقاصدها، دار التراث العربي ، القاهرة ، 1965 ، ص22
- 14- نفس المرجع، ص06.
- 15 - أحمد عبد الكريم السايح، المرجع السابق ، ص 257
- 16- عبد المحسن الحسني، نظرية المعرفة عند الترمذي، دار المعرفة للكتاب، القاهرة، 1988، ص202.
- 17- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 3 ، دار المعرف ، بيروت ، 1988 ، ص75
- 18- أبو سعيد الخراز، كتاب الصدق ، دار المعارف، بيروت، 1990، ص28
- 19- نفس المرجع، ص 28-29.
- 20- الإمام الشعراني، المرجع السابق، ص06
- 21- أبو حامد الغزالي، المرجع السابق، ص 227-238.
- 22- الإمام الهجويري، كشف المحجوب، المجلد 22، دار التراث العربي، القاهرة، 1974، ص570.
- 23- سعيد مراد، المرجع السابق، ص 128
- 24 - خالد بن تونس ، التصوف قلب الإسلام ، دار الجيل ، بيروت ، 2005 ، ص164
- 25 - الحكيم الترمذي، المسائل المكنونة، دار التراث العربي، القاهرة ، 1973 ، ص93